

# تقييدات

للأستاذ أنور المعداوي

مناه بول سارتر والشيوعية :

بالأسس كان جان بول سارتر زعيم الوجوديين في فرنسا خصما للشيوعية ؛ خصما لا أحسبني غالبا إذا قلت إن الشيوعيين لم يلقوا لوطأته مثيلا على طول ماتهرضوا له من محلات الخصوص . ذلك لأن سارتر كاتب أحدث من النوى في العصر الذي نعيش فيه ما لم يحدثه كاتب آخر ، حتى ليكنك أن تقول إنه أكثر الكتاب المعاصرين شهرة وأوسعهم نفوذا وأبعدهم تأثيرا في نفوس الجماهير ! من هنا لم تستطع الشيوعية أن تتجاهل خطورته ولا أن تتفانى عن خصوصته فضت تحاربه وتحارب آثاره بكل سلاح .. حاولت أن تنقض من قدره كفيلسوف له في الفلسفة مذهب ، وحاولت أن تقلل من أهميته كأديب له في الأدب طريقة ، وحاولت أن تسخر من جهوده كإنسان له في المجتمع رسالة ! قالت عن فلسفته في « الوجود والعدم » إنها فلسفة العدم ولا شيء سواه ، وقالت عن أدبه إنه أدب الانحلال وإنه خطر على الحضارة ، وقالت عن رسالته الاجتماعية إنها رسالة الآثمة والأثانية لأنها تحصر اهتمامها في الفرد دون أن تلتفت إلى المجموع ؛ وخلاصة هذا كله أن سارتر كاتب يحون شرف الثقافة ! قالت هذا وحاولت ذاك والمهدف البعيد واضح ، مقصود ، وهو أن تثير في النفوس عاصفة من الشك وفي الأذهان زوبعة من القلق حول كل ما يدلى به زعيم الوجوديين من آراء وأفكار ، حتى إذا ما نجحت في هذا الذي تهدف إليه فقد انهارت ثقة الناس في صدق ما يوجهه إلى الشيوعية من هجوم !!

ترى هل نجحت الشيوعية فيما قصدت إليه من وراء

حملاتها على الوجودية وحقت هدفها المنشود ؟ كلا ! والسبب أنها تلجأ إلى المغالطة وتسرف في الادعاء حين تحول النبل من زعيم الوجوديين على النحو الذي صورناه .. إن سارتر حين يدافع عن حرية الفرد في التفكير والتعبير واختيار لون الحياة الذي يريد ، لا يدافع عن حرية فرد بعينه حتى يجوز للشيوعيين أن يتهموا أدبه بأنه أدب الذاتية والفردية . إنه يدافع عن حرية كل فرد ومعنى هذا أنه يدافع عن حرية المجموع ؛ وفي ضوء هذه الحقيقة تتضح لك المغالطة التي تهدف إلى غرض معلوم ! إن رأى سارتر الذي يؤمن به ولا يتحول عنه هو أن حق الفرد في ظل النظام الشيوعي مهدد وأن حرته ملثمة ؛ حقه في أن يعيش على الوجه الذي يحب وحرته في أن يفكر ويعبر بالأسلوب الذي يشاء ، لأن الشيوعية قد رسمت خطوط اتجاه فكرية معينة ثم فرضتها فرضا على الحياة العقلية والاجتماعية .. إلناء لحرية مقرررة وإهدار لحق مشروع ، وهذا هو مبدأ الخلاف أوجوهرا لخصوصية بينه وبين الشيوعيين ! لقد أخرج سارتر للناس يوما نظرية في الأدب هي نظرية « الالتزام » وخلاصتها أن الأدب يجب أن يكون صورة صادقة للجو الذي يحيط به ، أن يكون مرآة صافية للمجتمع الذي ينتسب إليه ؛ أن يكون لسانا معبرا للجيل الذي يعيش فيه .. وهذه هي التهمة التي يجب أن يتحملها الأدب وهو عنها مشغول ، على الأديب أن يتصل بما حوله اتصالا كاملا حتى لا يكون بمنزل عما يمانيه مجتمعه من مشكلات ، سواء أكانت مشكلات اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية . عليه أن يشارك بقلمه في رسم صورة أمينة لتلك المشكلات وعليه أن يشارك برأيه في كل ما تحتاج إليه من حلول ، وهذا هو التزام الأدب وهذه هي رسالة الأديب ! إن سارتر ينكر أدب الأبراج العاجية أو هذا الأدب الذي لا يعبر عن أحزان الناس وأفراح الناس ، وحاجة كل فرد إلى أن يعيش حر الرأي وحر العقيدة وحر الحياة .. ترى هل نستطيع أن تهضم بعد هذا كلام

الأمريكيين .. عدالة الأمريكيين في معاملة الزوج وتعرضهم لكل مظهر من مظاهر الهوان !!

خيانة لشرف الثقافة .. ومن الخيانة لشرف الثقافة أيضاً أن يتحول سارتر عن موقفه بالأمس ليكون نصيراً للحزب الشيوعي الفرنسي في هذه الأيام ! تحول عن موقفه لأنه لا يريد أن يتحول عن مبادئه ؛ مبادئه التي فرضت عليه أن يدافع عن حرية الفرد ولو كانت حرية الخصوم .. لقد وقف زعيم الوجوديين إلى جانب الشيوعيين في فرنسا حين تعرضوا لأنوار متعددة من المسف وضروب مختلفة من الاضطهاد ، تمثلت في اعتقال زعمائهم تارة وتفتيش دورهم تارة أخرى ومصادرة آرائهم تارة ثالثة ! ومع هذا كله يغالط أنصار الشيوعية عاولين أن يوهوا الناس بأن سارتر اليوم قد أفاق ؛ قد استيقظ من سبات عميق ؛ قد آمن بعد كفر واهتدى بعد ضلال ؛ قد حافظ على شرف الثقافة بعد أن خانها بالأمس خيانة منقطعة النظير .. قالوها حين دافع في فرنسا عن حرية كل فرد في الأسرة الشيوعية ، وحين دافع في فيينا عن حرية كل فرد في الأسرة الإنسانية ، هناك حيث وقف في مؤتمر الشعوب ليزلزل بكلماته أفكار دعاة الحرب الأمريكيين !!

إن جان بول سارتر لم يخن شرف الثقافة ، وإنما الذي خان هذا الشرف هم هؤلاء الذين يشوهون الحقائق ، ويضللون القراء !!

فرانسوا موريالك وجائزة نوبل :

في مثل هذا اليوم من العام الماضي وفي مجلة « الكتاب » ، كتبنا مقالاً عن « الأثر الفني بين الفهم والتذوق » وردت فيه هذه الكلمات :

« هل قرأت قصة Genitrix لفرانسوا موريالك ؟ إنها قصة لا تمالك بتلك الطاقة القصصية الضخمة التي تمالك بها آثار كاتب مثل دستوفسكي أو بلزاك ، ولا بذلك التصميم الفني الدقيق الذي يشير إلى قدرة الملكة القاصة

قول الشيوعيين بأن رسالة سارتر هي رسالة الأثرة والأنانية ، لأنها تحصر اهتمامها في الفرد دون أن تلتفت إلى المجموع ، وأنه بما لذلك كاتب منحرف ضال يخون شرف الثقافة ؟ ! يوم أن طلع سارتر على القراء بنظرية الالتزام في الأدب هتف الشيوعيون : إذا كانت هذه هي أهداف سارتر وهي نفس أهدافنا فلماذا لا ينضم إلى الحزب الشيوعي فيبرج ويستريح ؟! قالوها ونسوا أن زعيم الوجوديين قد طالب في نظريته الالتزامية بحرية الفرد كاتباً وبحريته قارئاً وهو يحدد رسالة الكاتب والقراء .. إن الكاتب في رأي سارتر يجب أن يكون حراً فيما يكتب ، وإن القارئ يجب أن يكون حراً فيما يقرأ ، وبهذا وحده يتاح للأدب أن يكون ملتزماً حين يعبر عن مشكلات المجتمع وحين يبحث هذه المشكلات عن علاج . ومادامت الشيوعية في رأيه لا تتيح للكاتب والقارئ مثل هذه الحرية فما أبعد الشقة بينها وبينه وما أعمق هوة الخلاف ، بل ما أعجب هذا المنطق الذي يخاطبه به الشيوعيون !!

في سبيل حرية الفرد خاض سارتر الشيوعية بالأمس فاتهمته بأن هذه الخصومة لم تكن ثمرة العقيدة ولا ولادة الإيمان ، وإنما كانت إرضاء خالصاً وامتنالاً صادقا لاتجاهات السياسة الأمريكية ؛ هذه السياسة التي تساعد كل استثمار على استعباد الأحرار .. تهمة عجيبية قد تجوز على الذين لا يفرقون في القضايا المنطقية بين كذب النتائج وصدق المقدمات : سارتر ليس شيوعياً ، والشيوعية الروسية ضد الرأسمالية الأمريكية ، وإذن فسارتر أمريكي المواطن بلا جدال ! هذه القضية المنطقية تصح وتمسأغ إذا صحت هذه القضية الأخرى واستماعها الأذهان : أنت لست غنياً ، والفنى كما لا بد أن تعرف ضد الفقر ، وإذن فانت فقير بلا مرأى ! وترك هذا الاتهام « المنطقي » لنقول ونحن نمنى ما نقول : إن سارتر الذي هاجم الشيوعية من أجل حرية الفرد قد هاجم من أجل هذه الحرية نفسها « عدالة »

وتعني القصة في طريقها لتصور لك أدوار الصراع ؛  
الصراع الذي انتهى بموت الزوجة بعد عملية وضع قوشت  
من الجسد النهار آخر حصن من حصون المقاومة أو آخر  
معقل من معقل الكفاح ؛ الكفاح ضد قسوة البشروطة  
الحياة ! ولقد ماتت وحيدة ؛ لاهمة عطف من الابن ،  
ولا نظرة رثاء من الأم ، ولا موعد لقاء مع رحمة القدر ..  
وحين انتهى كل شيء ، وسكنت كل حركة ، ودفت في  
تراب الموت كل خصومة ، استطاع فرنان كازيناف أن  
يصعد إلى حجرة الشهيدة ، وأن يحس لذع النسم ، وأن  
يوجه إلى أمه كلمة عتاب !!

ويا لها من لحظة تلك التي يصور فيها مورياك موقف  
الزوج النادم أمام الجثة المسجاة .. إنها اللحظة النادرة من  
لحظات « التدوق » العميق لشهد من مشاهد الحياة  
منعكساً على صفحة النفس والضمير . لقد وقف فرنان أمام  
جثة الشهيدة وكأنه يقف أمام قديس يعترف له بما جنت  
يداه ، بما اقترف من إثم ، بما حمل من ذنوب .. رباه !  
من أغض عينيه كل تلك الأعوام فلم ير هذا الجمال ؟ ومن  
أغلق قلبه كل تلك السنين فلم ينعم بهذا الصفاء ؟ وهذا  
الطهر ، وهذا الصبر ، وهذا الإيمان ؛ هذه القيم الإنسانية  
من حال بيته وبينها حتى لكأنه يبصرها لأول مرة ،  
ويستشعرها لأول مرة ، وينكشف له منها في لحظة عابرة  
ما غاب عنه فيما مر من أيام دنياه ؟! آه لو يستطيع أن يفعل  
شيئاً لهذا الجسد ؛ الجسد الذي احترق في موقد العذاب ،  
وتألم ، وحمل من الشقاء فوق ما يحمل طوق الأحياء ؟ شيئاً  
ولو كان صغيراً ضئيلاً لا قيمة له ، يشمره بأنه قدم إليه في  
رحاب المدم ما يحجز عن أن يقدمه في رحاب الحياة ؟! إنه  
يريد الآن أن يعبر للجسد المسجى عن عطفه ؛ عطفه الذي  
لم يستطع أن يعبر عنه في يوم من الأيام ! ولقد قدر له أن  
يعبر عن هذا اللطف حين خطر « البداية هائلة أن يتفر  
على الوجه النبيل » .. لقد انتفض كالمصموق ليرد العدوان

على الصير بخط الاتجاه التفكيرى في طريق مرسوم ، ولا  
بذلك « الفهم » الواسع الذي يحيط بصور الحياة ليفرغها  
بعد ذلك في إطار .. ليس فيها شيء من هذا كله ، ولكن  
فيها الفنان الذي يعيش في موضوع قصته ؛ يعيش فيه بكل  
جوارحه وكل عواطفه وكل همسة روح تخفق بين حناياه .  
إنه القصاص الذي « يتذوق » الحياة في لحظاتها النفسية  
النادرة ، التي لا يفتن إليها غير أصحاب الوعي العميق !  
هناك لحظة من تلك اللحظات النادرة التي أشرت  
إليها في قصة مورياك ؛ وقبل أن أقف بك عند تلك اللحظة  
أنخص لك موضوع القصة بصراعاها النفسى في كلمات ، لأن  
موضوعها هو موضوع العلاقة « الخالدة » بين كل أم وكل  
زوجة ابن ، تحتمل في أعماقها الحركة حول الرجل الذي  
تربطه بالأولى روابط البنوة وتصله بالثانية صلات الزوجية ؛  
هذا الرجل الذي يقف بين « العدوتين » موقف الحائر  
التردد الذي تتعرض حياته في كل وقت لهبوب العواصف  
والأعاصير ، وتنقضى حين تنقضى وهي نهب مشاع للتعاب  
والآلام .. الابن هنا وهو فرنان كازيناف ، رجل ضئيل  
العزم مبتلوب الإرادة يعطى على زوجته ولكنه لا يستطيع  
أن يجبر بهذا العطف ، خوفاً من الأم التي بقيت له بعد  
وفاة أبيه وطيبته منذ صباه الباكر بطابع الخضوع والرهبة ؛  
فهو لا يستطيع أن يجادل ولا أن يعترض ولا أن يقف في  
وجهها عندما تتمتع الأمور ! والأم كازيناف ، امرأة تحب  
ابنها برفق قسوتها عليه ، وما كانت قسوتها تلك إلا نتيجة  
لهذا الحب الذي تريد به الأمومة أن تملك وأن تحكم وأن  
تستأثر ، وألا يشاركها في هذه الماطفة المتأججة نحو ابنها  
إنسان ! والزوجة وهي مانيلا كازيناف ، فتاة لقيت من  
ظلم الحياة وإهمال الزوج وقسوة الحياة ما ينوء به الطوق  
ويرفض معه الصبر وتحور منه المزائم .. ومع ذلك فقد  
سبرت . واحتملت ، ولنيت سائب الشيش بالرضا الصانع  
والصبر الجليل !

إنه كاتب « ذاتي » ولم يكن في يوم من الأيام من الكتاب « للزمن » ! ويقول الشيوعيون إنه كاتب « رجعي » ولم يكن في يوم من الأيام من الكتاب « التقدميين » ! ويقول فريق ثالث غير هؤلاء وأولئك إنه كاتب « متأمل » وليس بالكاتب « المفكر » ! ولهذا الأسباب مجتمعة ومتفرقة يتهم مورياك ويعترض عليه ويثار من حوله النبار ، أما أنه كاتب ذاتي فهذا حق لا مراء فيه وإنه ليعترف بهذه الذاتية ، وأما أنه رجعي فحق آخر لا يحتمل الجدل وإن لم يشأ هو أن يعترف به لأنه خصم للشيوعية ، وحين فصل إلى المرحلة الثالثة من مراحل الاتهام لا نجد فيها شيئا من التجنى ولا شيئا من المغالاة . ولكن هذا كله لا يبرر هذه الضجة التي يقصد منها إلى أن الرجل ليس أهلا لهذا التقدير .. لقد كان أندريه جيد يلتق معه في كثير من هذه الخصائص التي يسلكونها في عداد المآخذ والعيوب : كان من أدباء الخواطر والتأملات ولم يكن من أصحاب المذاهب والأفكار ، وكان من الكتاب الذاتيين الذين يدورون بأدبهم حول المشكلات الفردية ثم لا يطيرون الوقوف عند مشكلات المجتمع العام ، ومع هذا فلم يلق جيد شيئا من الاعتراض يوم أن ظفر بمثل هذه الجائزة الضخمة التي ظفر بها مورياك !

لقد عالج مورياك فيما عالج من فنون الأدب نظم الشعر وكتابة القصة وانضم آخر الأمر إلى زمرة النقاد ، ولكن ملكته الناقدة لم تكن في قوة ملكته الشاعرة أو ملكته القاصة حين توزن المواهب والملكات ... ولعل القراء يذكرون تلك القصة الطريفة التي قصصناها عليهم يوما في « الرسالة » ، حين عمد أدريان فرنسيان ناشان إلى طبع ديوان من نظمهما ثم نسيان إلى الشاعر الفرنسي رامبو ، حتى يضمن كلاهما للديوان شيئا من الزواج والانتشار ! لقد جازت الخدعة يومئذ على « الناقد » مورياك فكتب صفحة كاملة في « الفيجارو » يتحدث فيها عن إعجابه البالغ بفن الشاعر الفرنسي العظيم ، على الرغم مما أثاره الكاتب

الآثم عن تلك القصة « الآثمة » ! القصة التي يجب ألا « نلقها » بعد الآن هجاء المتدين !!

هذا هو الأثر الفني بين الفهم والتذوق ممثلا في قصة فنية .. إن مورياك في هذه القصة كما قلنا لك ، لا يطالعك بذلك « الفهم » الواسع الذي يحيط بصور الحياة ليفرغها بعد ذلك في إطار ، ولكنه يطالعك بذلك « التذوق » للحياة في لحظاتها النفسية التي لا يظن إليها غير أصحاب الوعي العميق ! تلك اللقطة النادرة في جملة عابرة ؛ اللقطة المتمثلة في تصوير النسم والشعور به ، وفي الإيحاء بالذنب والتكفير عنه ؛ وتلك الزاوية الفريدة التي اختارها ليركز فيها ذلك الإيحاء ، بكلمات قليلة موجزة قوامها « الذبابة التي استقرت على الوجه النبيل » .. كل هذه القيم التعبيرية التي ارتفعت بالشهد النفسي إلى آفاق متسامية من الفن ، تستطيع أن تختصرها في معنى واحد هو المحور الكبير الذي ندور حوله منذ البداية ، ونعني به « التذوق الشموري » الكامل في الأثر الفني حين يتحول إلى تجربة داخلية كاملة في النفس الإنسانية !

هذا هو ما قلناه عن مورياك في عام ١٩٥١ ، وهما نحن نعيده اليوم لأن الكاتب الفرنسي قد ظفر بجائزة نوبل للأدب عن عام ١٩٥٢ ، ولأن الأكاديمية الملكية السويدية قد خصته بهذه الجائزة « لما يمتاز به أدبه من تحليل عميق للنفس ، ولما يتسم به فنه القصصي من قدرة على التعبير عن الحياة الإنسانية » . إنك حين ترجع إلى هذا الميزان الذي أقيناه لفن مورياك ونحن نتحدث عن الأثر الفني بين الفهم والتذوق ، ثم تعود إلى هذا الميزان الآخر الذي أقامته له الأكاديمية الملكية السويدية وهي في معرض التقدير والتبرير ، لا تكاد تجد فارقا بين الزائنين إلا في الألفاظ المعبرة تبعا لاختلاف الصور وتنوع الأساليب !

ومع ذلك فإن هناك ضجة في فرنسا حول هذه الجائزة الضخمة التي ظفر بها مورياك ؛ ضجة يثيرها خصوم الكاتب الفرنسي من الأدباء والنقاد : يقول الوجوديون